(١٤)

إنما يخشى الله من عباده العلماء

obeikandl.com

obeikandl.com

يقول تعالى فى سورة فاطر :

* ﴿ . . إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ .

[فاطر: ٢٨] .

لقد أجهد المفسرون أنفسهم عندما تناولوا هذا الشطر من الآية بالتفسير، فالبعض منهم قال أن المقصود بالعلماء .. هم علماء الدين لأنهم أعرف الناس بمسائل الحلال والحرام، وبحكمة الأوامر والنواهى، وبتأويل النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، واستنباط الأحكام الشرعية من هذه النصوص .. وكل هذا يورثهم خشية الله.

والبعض الآخر قال أنهم العلماء الباحثون فى علوم الطب والهندسة والكيمياء والفلك وغيرها من العلوم الطبيعية لأنهم يتعمقون فى أسرار المواد وبديع صنع الله فى المخلوقات، ودقة نظام الله فى الكون .. وكل هذا يورثهم خشية الله.

والبعض الثالث قال أن العلماء هم من جمعوا بين العلوم الدينية والعلوم الطبيعية.

إن كل هذه الأقوال تكلمت عن الفروع ولم تبدأ بالأصل الأول للعلم .. وهو العلم بالله. أى العلم بأسماء الله وصفاته، وأقواله وأفعاله، وقدرته وحكمته، وقبل كل ذلك وحدانيته، وحدانية الألوهية والربوبية والحاكمية. فالعلم بالله هو أشرف العلوم لمن أراد أن يتعلم ويبدأ طريقه إلى الله.

فإذا عرفت الله حق المعرفة عبدته حق العبادة وخشيته حق الخشية. وإذا وصفت أحداً من الناس بأنه لا يخشى الله فهو وصف مبتور، والوصف الصحيح أنه لا يعرف الله لأنه لو عرفه لخشيه، لأنه لا يوجد من يعرف الله ولا يخشاه. واستمع إلى قوله تعالى للرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿ . . إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ . .﴾ [فاطر: ١٨].

وفى كثير من سورة القرآن الكريم تُذْكر الخشية كأثر من آثار العلم بالله وكدافع للاستقامة على أمر الله وكسبب من أسباب رضوان الله وحسن العاقبة

نذكر منها قوله تعالى :

* ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ... ﴾ [يس: ١١].
* ﴿ ... رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ [البينة: ٨].
* ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ [النازعات: ١٩].
* ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾.

[النور: ٥٢].

* ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٠].
* ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

[الملك: ١٢].

إذاً فإن أخشى الناس لله هم العلماء بالله أولاً، ثم بآيات الله التنزيلية والكونية بعد ذلك ولهذا لم يجد رجال التصوف وصفاً لأقطابهم خيراً من وصفهم بأنهم «العارفون بالله».

ومن أجمل الأقوال التى قيلت تأكيداً للمعنى الذى نهدف إليه .. قول عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه : «كفى بالخشية علماً، وكفى بالاغترار جهلاً».

فكم من المسلمين لم يحصلوا إلا على قدر متواضع من العلم أو لم يتعلموا أصلاً فى معاهد العلم، ولكنهم يخشون الله تعالى أشد الخشية ..

هؤلاء من العلماء بالله الذى تشير إليهم الآية، وقد نسب لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال داعياً : «اللهم إيماناً كإيمان العجائز» ..

والعجائز هن اللاتى قادتهم فطرتهم السليمة إلى خشية الله دون تعليم سابق، ودون حاجة لتهافت الفلاسفة الذى قادتهم فلسفاتهم فى بعض الأحوال إلى الزندقة..

ويعرف ذلك من لديه إحاطة بعلم الكلام وأحوال المتكلمين.

وكم من المسلمين وصلوا إلى أرفع الدرجات العلمية فى تخصصاتهم فى العلوم الدينية أو الطبيعية أو كلاهما معاً ولكنهم لا يخشون الله فى أقوالهم وأعمالهم بل قد يعتنقون فكراً يتناقض مع الإسلام مثل الماركسية أو العلمانية .. هؤلاء هم الجهلاء بالله الذين اغتروا بعلومهم وأوضاعهم الدنيوية .. فضلوا وأضلوا.

فإذا اجتمع العلم بالله الذى يورث الخشية مع العلم بالعلوم الشرعية والطبيعية .. كان هذا هو النموذج الأمثل، حيث إن خشية الله سوف تصون العلم، والعلم سوف يزيد الخشية. فإن اجتمعا كان فى اجتماعهما الخير لمن اجتمعا له وللناس، وإن افترقا كان فى افتراقهما الشر لمن افترقا عنده وللناس.

ويكفى مثلاً لذلك العلم الذى قاد لصنع القنبلة الذرية وما أصاب وما يمكن أن يصيب الإنسان والحياة بالرعب والدمار. وكيف أن «نوبل» الذى اخترع الديناميت قد رأى ماذا ترتب على اختراعه من ألوان الدمار والضحايا، فحاول أن يخمد نار ضميره بتخصيص مبلغ من المال يصرف منه سنوياً جوائز نوبل لمن له جهد بارز فى سلام العالم، أو خدمة البشرية فى مجال العلوم الطبيعية أو الإنسانية، والإبداع الأدبى الذى يهدف إلى ترسيخ مبادئ السلام، وقيم الحق والخير والجمال التى هى المباحث الثلاثة للفلسفة .. ولكن هيهات، هيهات أن يصل نوبل إلى هدفه من جوائزه، فقد خرج المارد من القمقم، ولا يمكن أن يعود إليه مرة أخرى، فقد تلقف اختراعه المفسدون فى الأرض، وتلقف فكرته النبيلة الخاصة بالجوائز من أساؤوا استخدامها لتحقيق أهداف خبيثة وأغراض خسيسة.

لعلنا أيقنّا مما سبق أن العلم بالله تعالى هو أشرف العلوم، وأن العلماء بالله هم أخشى الناس لله وأنهم هم المقصودون بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾.

وقد كان الرسول ﷺ أخشى الناس لله وأتقاهم له كما قال ﷺ عن نفسه.

لماذا ؟ لأنه كان أعلم الناس بالله .. وبالتالى أخشاهم وأتقاهم له.

لذلك كانت من أدعيته المأثورة ما سندعوا الله به ختاماً لهذا الموضوع :

* «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك».

* «اللهم إنا نسألك علماً نافعاً، وقلباً خاشعاً، ولساناً ذاكراً».

.. آمين .

obeikandl.com

(١٥)

يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله

obeikandl.com

obeikandl.com

ينادى الله المؤمنين فى ختام سورة الحشر بقوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) ﴾ [الحشر: ١٨ - ٢٠].

ويلفت النظر فى هذا النداء من الله ـ تعالى ـ للذين آمنوا ـ أى الذين سبق لهم الإيمان ـ أنه يأمرهم بالتقوى مرة من بعد مرة فى آية واحدة مما يدفعنا لطرح بعض الأسئلة ..

ما الإيمان؟ وما التقوى؟ وهل كل مؤمن تقى وكل تقى مؤمن؟

سوف نحاول الإجابة على هذه الأسئلة التى كثيراً ما تثور فى الأذهان ..

الإيمان :

كما عرفه الرسول عليه الصلاة والسلام فى الحديث المشهور الذى يرويه عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره» وهذه هى أركان الإيمان أو الغيبيات الستة، فالإيمان أساسًا هو إيمان بالغيب، وهو ما غاب عن الإنسان زمانًا أو مكانًا أو الاثنين معًا ولكنه صدقه عندما أخبر به من رسل الله ـ تعالى ـ عليهم وعلى خاتمهم أفضل الصلوات وأتم التسليمات.

لذلك كانت أول صفة من صفات المتقين كما جاء فى أول سورة البقرة ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ... ﴾.

والإيمان .. كما عرّفه العلماء هو «نطق باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان».

وهو تعريف يشمل النطق بالشهادتين باللسان، والاعتقاد فى الأركان الغيبية

الستة لإيمان ومحله القلب، ثم العمل بأركان الإسلام الخمسة بكل الحواس والجوارح فى الجسم.

والأركان كما عرَّفها الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ هى أركان الإسلام الخمسة كما جاءت فى الحديث السابق الإشارة إليه «أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً».

اما التقوى :

فهى الإيمان العملى، أى العمل بمقتضى الاعتقاد مع الامتناع عن أى شىء يخالف هذا الاعتقاد .. قولاً وعملاً.

فمن سبق له أن نطق بالشهادتين .. فعليه أن يسلك فى حياته سلوك الموحدين وألا يشوب قوله وعمله أى لون من ألوان الشرك .. كبيره وصغيره، ظاهره وباطنه.

وعلى من اعتقد فى الغيبيات الستة، وعرف الله كما عرَّفه الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، وعرف أن لله ملائكة يروننا ولا نراهم .. مأمورين من الله ـ تعالى ـ بأوامر شتى ﴿ ... لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦]. ومن هذه الأوامر نفخ الأرواح وقبضها، وكتابة الأقوال والأعمال مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٠ – ١٢]. ومنهم خزنة الجنة وخزنة النار، وغير ذلك كثير من شئون الملائكة مما لا يتسع المجال لذكره. وعرف القرآن الكريم وما فيه من أوامر ونواهى، ووعد ووعيد وعرف معه أن لله ـ تعالى ـ كتبًا سابقة أنزلها على الرسل السابقين. وعرف الرسول عليه الصلاة والسلام وعرف سنته وعرف ما فيها من أوامر ونواهى وعرف معه الرسل والأنبياء السابقين وأن دينهم هو الإسلام مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]. وعرف اليوم الآخر وأن هذه الحياة الدنيا ابتلاء وأن بعدها الموت وبعد الموت بعث وحساب وبعدهما خلود إما فى الجنة لمن أحسن

العمل، وإما فى النار لمن أساء العمل مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ ... وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧]. وعرف أن كل شيء فى هذا الكون لا يكون إلا بقضاء الله وقدره مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩]. فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأن ما أصاب العبد لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه مصداقًا للحديث الذى رواه ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «... واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك ...»، وأن ما يراه العبد خيراً قد يكون شراً، وأن ما يراه شراً قد يكون خيراً مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ ... وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وبعد أن عرف العبد كل ذلك عن أركان الإيمان الستة .. سلك فى حياته بمقتضى هذه المعرفة وامتنع عن أى شيء يخالف هذه المعرفة .. قولاً وعملاً.

وكذلك على العبد الذى عرف أركان الإسلام الخمسة .. فعبد الله ولم يشرك به شيئًا ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ... ﴾ [النساء: ٣٦]، وأقام الصلاة التى تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴿ ... إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ... ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وآتى الزكاة التى تطهر النفس من الشح وتطهر المال من حق الفقير والمسكين ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ... ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وصام رمضان فأورثه الصيام التقوى ومراقبة الله فى السر والعلانية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وحج البيت إن استطاع إلى ذلك سبيلاً فعرف كيف يكون الجهاد بالنفس والمال فى سبيل الله وابتغاء مرضاته ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ... ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وبعد أن عمل بهذه الأركان الخمسة للإسلام سلك فى حياته بمقتضى هذه العبادات وامتنع عن أى شيء يخالفها .. قولاً وعملاً.

من سلك فى حياته بمقتضى قوله باللسان واعتقاده بالجنان وعمله بالأركان ولم يخالف سلوكه قوله ولم يخالف عمله اعتقاده .. فهو تقى .. وهذه هى التقوى التى عرَّفها الكثيرون من الصحابة والتابعين بإحسان من الأئمة والعلماء .. ومن أشهر هذه التعريفات قول على بن أبى طالب ﷺ أن التقوى هى «الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل»، ومنها أيضًا قولهم أن التقوى هى .. «أن يُعبد الله فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر».

لذلك كانت الجنة هى دار المتقين كما جاء فى كثير من آيات القرآن الكريم ومنها قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم: ٦٣].

وخير معين على تقوى الله .. هو المداومة على ذكر الله واليوم الآخر لذلك قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر: ١٨]

وأخطر ما يكون على المؤمن أن ينسى ذكر الله، وذكر اليوم الآخر، فمن نسى ذلك أنساه الله نفسه .. لذلك قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٩]

ولنتصور الإنسان وقد نسى نفسه .. فكيف يكون حاله؟ .. لابد أن يخرج عن جادة الصواب، وإن كان مؤمناً خرج عن دائرة الإيمان أو أوشك على ذلك فيكون من الفاسقين كما تخرج الرطبة من قشرتها.

ونسيان الله على نوعين: نسيان الجحود ـ ونسيان الذكر .. والأول كفر بالله، والثانى غفلة عن الله .. ونستعيذ بالله منهما.

وأخيراً .. لا ينسينا هذا الاستطراد عن الإيمان والتقوى .. أن نُجيب على سؤال طرحناه فى البداية .. هل كل مؤمن تقى، وكل تقى مؤمن ؟

إن الإجابة على هذا السؤال فى ضوء ما أسلفناه أصبحت سهلة ويسيرة .. وهى أن كل تقى مؤمن، وليس كل مؤمن تقيًا، فالمؤمن التقى من وافق من سلوكه

اعتقاده، ووافق عمله قوله، ووافقت تصرفاته شعائره. أما المؤمن الذى يخالف سلوكه اعتقاده، ويخالف عمله قوله، وتخالف تصرفاته شعائره .. فهو ليس بتقى وهو على خطر عظيم فى شأن إيمانه لأنه يقترف أمراً يكرهه الله أشد الكراهية مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢، ٣].

ونسأل الله ـ تعالى ـ أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته .. وأن يجعلنا من عباده المتقين.

.. آمين .

obeikandl.com

obeikandl.com

(١٦)

فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا

﴿ الرشد .. في القرآن الكريم ﴾

obeikandl.com

obeikandl.com

الرُشْد .. من المفردات الهامة التى تناولها القرآن الكريم، وتنوع ذكره فى مواضع مختلفة، وآيات متعددة بالدرجة التى تحفز على تتبع هذه الآيات واستخلاص المعانى التى وردت بها عن الرشد والراشدين .. وذلك على الوجه التالى :

أولاً : تعريف الرشد :

يقول تعالى :

* ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ... ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

* ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

من هاتين الآيتين نستطيع أن نستخلص معنى الرشد، فإن كان الغى هو الغواية فإن الرشد هو الهداية وإن كان سبيل الغى هو سبيل الذين كذبوا بآيات الله وكانوا عنها غافلين فإن سبيل الرشد هو سبيل الذين صدقوا بآيات الله وكانوا لها منتبهين.

وقد جاء فى قاموس المصباح المنير أن الرشد: هو الصلاح وهو خلاف الغى والضلال، وهو إصابة الصواب.

والرشد مرحلة من المراحل السنية التى يمر بها الإنسان، فإن كان سن التمييز الذى يبدأ بالسنة السابعة ـ تقريبًا ـ من عمر الإنسان يعنى التمييز بين الذى ينفع والذى يضر وهو فى أبسط صوره التمييز بين التمرة والجمرة، لأن تناول التمرة ينفع بأكلها، وتناول الجمرة يضر بأصابع من تناولها.

فإن سن الرشد ـ غير محدد شرعاً ومحدد قانوناً ببلوغ سن الواحد والعشرين ـ يعنى الأهلية للتصرف وبالتالى المسئولية عن التصرف، كما يعنى القدرة على الاختيار بين البدائل، والترجيح بين الآراء المختلفة، كذلك يعنى الاستعداد لتحمل المسئولية عن غيره .. سواء كان هذا الغير زوجةً أو أولاداً، أو أمةً وشعبًا .. وبين هذين المستويين من مستويات المسئولية الأدنى والأعلى توجد مستويات عديدة

بينهما.

وهذا الوصف لسن الرشد يلقي الضوء على معنى الرشد وسوف يزداد فهمنا لمعنى الرشد باستعراض ما سيلي من آيات القرآن الكريم.

ثانيًا : الإيمان بالله ـ تعالى ـ والاستجابة لدعوته وإسلام الوجه له .. دليل الرشد :

يقول تعالى :

* ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

* ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ [الجن: ١٤، ١٥].

أما عن آية «البقرة» فهي إجابة عن سؤال سأله الصحابة للرسول عليه الصلاة والسلام عن الله ـ تعالى ـ .. أهو قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فكانت الإجابة أنه قريب يجيب دعوة الداع إذا دعاه .. ولكن بشرط أن يستجيبوا لأوامره ونواهيه ويؤمنوا بألوهيته وربوبيته وحاكميته .. وقبل كل ذلك وحدانيته.

فالإجابة شرطها الاستجابة والإيمان فإن فعلوا كان ذلك سبيلاً لرشدهم .. أى لصلاح أمورهم فى الدنيا وحسن عاقبتهم فى الآخرة.

أما عن آيتى سورة «الجن» .. فهما شهادة من الجن الذين استمعوا للرسول عليه الصلاة والسلام وهو يقرأ القرآن ﴿ ... فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ [الجن: ١، ٢]، وهما دليل استجابتهم لدعوة الحق بعد التحرى والتدقيق .. فأقروا بأن من أسلم فأولئك تحروا رشداً .. أى أصابوا الصواب، أما من أعرضوا عن الحق وظلموا أنفسهم بالكفر والشرك فمآلهم أن يكونوا لجهنم حطباً.

وبالها من حكمة بالغة من عالم الجن المؤمن .. استحقت أن تكون عنواناً لمقالنا هذا.

ثالثًا : الرشد يؤتاه عباد الله الصالحون من رب العالمين :

يقول تعالى :

* ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١].
* ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾.

[الكهف: ١٧].

قبل أن نتدبر آية «الأنبياء» ينبغى أن نتذكر قوله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾. [الصافات: ٩٦].

والرشد نعمة آتاها الله لإبراهيم عليه السلام ويؤتيها لعباده الصالحين، والأمثلة الدالة على رشد إبراهيم عليه السلام كثيرة فى القرآن الكريم منها الطريقة التى اتخذها لكى يثبت لنفسه وحدانية الله بأن تطلع إلى السماء فرأى الكوكب ورأى القمر ورأى الشمس فرأى أحوالها إلى بزوغ وأفول وانتهى أمره إلى الحقيقة الساطعة والخالدة أنها مخلوقات خلقها فاطر السماوات والأرض فقال: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٩].

فكانت الحنيفية السمحاء التى عبد الله بها كل أنبياء الله الصالحين عن أبيهم إبراهيم عليه السلام ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

ومنها الطريقة التى اتخذها لكى يثبت لقومه وحدانية الله بأن حطم أصنامهم إلا كبيراً لهم وتحاور معهم حتى أثبت لهم بطلان عبادتهم لهذه الأصنام التى لا تسمع ولا تنطق، ولا تنفع ولا تضر حتى اعترفوا بذلك ولكنهم ارتدوا على أدبارهم .. فكيف يتركون دين الآباء والأجداد بهذه السهولة ويتبعوا هذا الفتى الذى يقال له

إبراهيم ؟!. إنها أمثلة يتجلى فيه الرشد فى أسمى معانيه.

أما آية «الكهف» فهى امتداد وتأكيد لآية «الأنبياء». فالرشد من الله، والهداية من الله، ومن أضله الله فلن تجد له وليًا مرشدًا مصداقًا لقوله تعالى أيضًا: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ .. ﴾ [فاطر: ٨]، وقوله تعالى: ﴿ .. كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ .. ﴾ [المدثر: ٣١].

والرشيد.. اسم من أسماء الله الحسنى .. فهو المرشد لعباده، وهو الذى تتجه تدبيراته إلى غاية الصواب والسداد، وهو الذى يرشد الخلق ويهديهم إلى ما فيه صلاحهم، ويوجههم بحكمته إلى ما فيه خيرهم ورشادهم فى دنياهم وأخراهم.

رابعًا : طلب الرشد. من دعاء الصالحين، ومما يأمرهم الله بطلبه :

يقول تعالى :

* ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: ١٠].

* ﴿ ... وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: ٢٤].

الرشد من عطاء الربوبية يؤتاه عباد الله الصالحون فيشكرون، ويفتقدونه فيطلبون.

وهذا ما حدث مع أصحاب الكهف بعد أن ضاقوا ذرعًا بأحوال قومهم الذين اتخذوا من دون الله آلهة. فلما أعيتهم الحيل وعجزوا عن التصرف الذى يحفظ لهم إيمانهم بربهم لجأوا إليه وطلبوا منه الرحمة والرشد فى الأمر.

ولما كان المطلوب فوق طاقتهم جعلهم الله آية وضرب على آذانهم فى الكهف سنين عدداً .. كما قص الله علينا نبأهم فى سورة الكهف، والمعنى الذى يمكن أن نستخلصه من هذه الآية .. أن الرشد يعنى حسن التصرف فى مواجهة الشدائد.

أما الآية الثانية فهى خطاب من الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام يأمره

بطلب الهداية والرشد فى أمر اختلط على الناس وتعددت فيه الآراء والاجتهادات والادعاءات عن قصة أصحاب الكهف وعددهم .. فقال تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: ٢٢ - ٢٤].

والرشد هنا يعنى استجلاء الحقائق الغامضة من مصادرها الصحيحة أو السكوت عنها فى حالة عدم الوصول إليها والامتناع عن ترديد ما يقال دون دليل، كما يعنى الالتزام بالتوجيهات التى وردت فى الآيات وهى عدم الجدال فى شأن أصحاب الكهف وعددهم، وعدم اللجوء لغير الله فى هذا الشأن، وتقديم المشيئة فى كل الأحوال، وذكر الله فى حالة النسيان لعل الله يهدى ويرشد إلى الحقائق التى لا مراء فيها ولا جدال.

خامسًا : الرشد هو غاية العلم :

يقول تعالى :

* ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾.

[الكهف: ٦٦].

إذا كان الرشد عطاء من الله، ودعاء إلى الله، فهو أيضًا يكتسب بالعلم. والمؤمنون مأمورون بطلب العلم، فطلب العلم فريضة، وكلما زاد العلم زاد الصواب، وزادت القدرة على حسن التصرف والحكم الصحيح على الأشياء، وزادت الخشية لله تعالى.

لذلك سعى موسى عليه السلام لطلب العلم، وطلب من الخضر أن يكون تابعًا له لكى يعلمه مما علم رشداً .. فالرشد هو غاية العلم .. فإذا تجرد العلم من هذه الغاية

أصبح علماً لا ينفع ولا يرشد .. ونستعيذ بالله من علم لا ينفع ونسأله العلم النافع الذى يرشد إلى السداد والصواب.

سادسًا : الرشد .. يعنى حسن التصرف :

يقول تعالى :

* ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ... ﴾ [النساء: ٦].

هذه الآية صريحة فى الدلالة على أن الرشد يعنى حسن التصرف فى الأموال وفى غيرها. فهى أمر من الله ـ تعالى ـ للأوصياء على اليتامى أن يختبروا حسن تصرفهم إذا وصلوا إلى سن البلوغ والتكليف وبالتالى الأهلية للنكاح .. أى الزواج، فإن آنسوا ووجدوا أنهم يحسنون التصرف فى الأموال وفى غيرها، فعليهم أن يرفعوا عنهم الوصاية ويدفعوا إليهم أموالهم فهم أولى بها، فلا مبرر للوصاية على من يحسن التصرف.

سابعًا : الرشد .. هو غاية الهدى :

يقول تعالى :

* ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٣٨].

هذا هو مؤمن آل فرعون الذى كان يكتم إيمانه ثم أظهره عندما هدد فرعون بقتل موسى عليه السلام، وألقى بياناً إيمانيًا غاية فى الحكمة والشجاعة وكان من بينه هذه الآية التى يدعوهم فيها لاتباعه كى يهديهم سبيل الرشاد.

والرشد هنا .. هو الدين الصحيح، وهو الإيمان بالله واليوم الآخر .. فمن اهتدى بهذا الهُدَى فقد سلك السبيل إلى الرشد والرشاد.

ومن الغريب أن فرعون قد ادعى لنفسه نفس الدعوة وقال لقومه: ﴿ ... قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [غافر: ٢٩].

والفرق واسع والبون شاسع بين دعوة هذا الرجل ودعوة فرعون، وهذا الفرق يتضح من قوله تعالى على لسان الرجل المؤمن: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ [غافر: ٤١، ٤٢].

لذلك فإن من الرشد .. القدرة على التفرقة بين دعوة الحق ولو كانت مستضعفة، ودعاوى الباطل ولو كانت مدججة بالسلاح.

ثامنًا : رجل رشيد فى قومه .. يصلحهم، ورجل غير رشيد فى قومه .. يفسدهم :

يقول تعالى :

* ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨ - ٩٧].

* ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٦ - ٩٧].

لقد شاعت فى قوم لوط فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، فكانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء مخالفين بذلك الناموس الطبيعى مما يقطع السبيل إلى التناسل ويمنع عمران الأرض بالذرية.

وجاءت الملائكة إلى لوط عليه السلام لكى ينفذوا أمر الله ـ تعالى ـ وينزلوا العقاب بهؤلاء المفسدين. جاؤوا فى شكل رجال غاية فى الوضاءة والحسن. فما أن علم قوم لوط بوجود هؤلاء الأضياف حتى هرعوا إليه طمعًا فى ممارسة الفاحشة معهم وهم لا يعلمون حقيقة أمرهم. فاستجاش فيهم لوط مشاعر التقوى ـ وأنى لهم ذلك ـ حتى لا يخزوه فى أضيافه، ودعاهم إلى الناموس الطبيعى بالزواج من البنات .. بناته وبناتهم، ثم قال لهم: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾.

فالرجل الرشيد فى قومه يصلحهم ويهديهم إلى الصواب ويحذرهم من مغبة الضلال والفساد .. ولكن للأسف الشديد لم يكن هذا الرجل الواحد موجوداً فاستحقوا بذلك ما نزل بهم من عذاب ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

وإذا كان عدم وجود رجل رشيد فى قوم يؤدى إلى الفساد وسوء العاقبة، فإن وجود الرجل غير الرشيد فى قوم يؤدى بهم إلى نفس النتيجة، فالسلبية فى الصلاح تعادل وتوازى الإيجابية فى الفساد. وهذا كان شأن فرعون مع قومه الذين اتبعوه وقد وصفه الله فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾. وفرعون الذى تكرر ذكره كثيرا فى القرآن الكريم يعتبر نموذجا للضلال والفساد وفتنة السلطان حتى وصل به الأمر أن قال لقومه: ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال لقومه أيضاً: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾[القصص: ٣٨].

أما عن قومه فقد قال تعالى عنهم وعنه: ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٤]. فماذا كانت عاقبته وعاقبتهم ؟

نعود مرة أخرى إلى سورة هود فيقول تعالى عن فرعون وقومه: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ [هود: ٩٨، ٩٩].

تاسعًا : الراشدون .. ليسوا فقط الذين يحبون الإيمان، ولكنهم أيضًا الذين يكرهون الكفر والفسوق والعصيان :

يقول تعالى :

* ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ [الحجرات: ٧].

يتفاضل المؤمنون فى درجات إيمانهم وبالتالى تتفاضل درجاتهم فى الجنة .. فالجنة درجات، أعلاها الفردوس الأعلى حيث رفقة الأنبياء والشهداء والصالحين .. وحسن أولئك رفيقاً.

والرشد فى الإيمان يرشح أصحابه للدرجات العليا فى الجنة. فما هو الرشد فى الإيمان ؟

الرشد فى الإيمان .. هو أن تحب وتكره .. فمن أحب الإيمان، وجب عليه أن يكره الكفر والفسوق والعصان .. ومن أحب الخير كره الشر، ومن أحب التقوى كره الفجور، ومن أحب الهدى كره الضلال، ومن أحب الطاعة كره المعصية، ومن أحب الرشد كره الغى .. وهكذا.

لذلك لا يجد المؤمن حلاوة الإيمان إلا إذا أحب الإيمان وكره كل ما يتنافى مع مقتضياته.

وفى هذا المعنى يروى لنا الصحابى الجليل أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار**» متفق عليه.

وفى المقابل نجد أن الكثيرين يجمعون بين حب الإيمان وحب ما يناقضه وهذا الجمع يجرح إيمان المؤمن ويفقده الشعور بحلاوته والأمثلة على ذلك كثيرة مثل رجل يصلى ولا ينتهى عن الفحشاء والمنكر، وامرأة تدعى الإيمان وترتدى الملابس المتبرجة، وتاجر يؤدى فريضة الحج ويطفف فى الكيل والميزان، وولى أمر يحكم ويظلم، وعامل يعمل ويرتشى، وعالم لا يعمل بعلمه، وداع يدعو الله ومأكله حرام ومشربه حرام وغذى بالحرام، وصائم لا يتقى الله فى قوله وعمله، وشاهد بوحدانية الله يقع فى ألوان من الشرك الأصغر أو الأكبر بسلوك أو اعتقاد أو تصور يتنافى مع الوحدانية .. وغير ذلك من الأمثلة.

والراشدون .. هم الذين لا يقعون فى هذه المخالفات، ولا يجمعون بين حب

الإيمان وحب ما يناقضه .. هم الذين يحبون الإيمان ويكرهون الكفر والفسوق والعصيان كما جاء وصفهم فى سورة الحجرات . نسأل الله ـ تعالى ـ أن نكون منهم.

وختاماً .. ندعوا الله تعالى بهذا الدعاء المأثور عن الرسول عليه الصلاة والسلام :

* «اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر، وأسألك العزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك ...» رواه الترمذى وابن حبان عن شداد بن أوس رضي الله عنه .

obeikandl.com

(١٧)

إنا عرضنا الأمانة ..

obeikandl.com

obeikandl.com

يقول تعالى فى سورة الأحزاب :

* ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

للمفسرين أقوال كثيرة فى هذه الآية لأنها تثير أسئلة عديدة أمام من يتصدى لتفسيرها :

* فكيف تم عرض الأمانة ؟

* وما هى الأمانة ؟ ولماذا أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها ؟

* وما معنى إشفاق السماوات والأرض والجبال ـ والإشفاق شعور ـ فهل لها مشاعر ؟

* وكيف كان حمل الإنسان للأمانة ؟

* ولماذا وُصِف الإنسان بأنه كان ظلوماً جهولاً ؟

اما عن عرض الأمانة :

فمن المتصور أنه فى الملأ الأعلى بحضور الإنسان. ولكن أى إنسان؟ هل هو آدم مُمثلاً لجنس البشر؟ أم هو عرض مماثل للعرض الذى تم فيه ميثاق الذر الذى ورد فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ... ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. أم أن ميثاق الذر هو المقصود بعرض الأمانة؟ .. الأمر يحتمل كل هذه الوجوه .. والله أعلم.

أما الأمانة :

فهى مقومات الخلافة ـ خلافة الإنسان فى الأرض ـ من عقل وقلب وحواس أهمها السمع والبصر اللازمان للابتلاء الذى من أجله خلق الله الإنسان مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيراً ﴾ [الإنسان: ٢]. فلأجل الابتلاء جعله الله سميعًا بصيراً. والعقل والقلب والحواس من

لوازم الاختيار ..

وقيل : إن الاختيار هو الأمانة المشار إليها في الآية حيث إن الذى يميز الإنسان عن باقى المخلوقات ـ ومثله فى ذلك الجن ـ هو الاختيار بين الإيمان والكفر، وبين الطاعة والمعصية، وبين الإحسان والإساءة، وبين التقوى والفجور. أما السماوات والأرض فقد قال الله لهما: ﴿ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾. [فصلت: ١١].

أما عن إباء السماوات والأرض والجبال :

فليس إباء عصيان، ولكنه إباء عجز وعدم قدرة على التحمل، فلم يخلقهم الله ـ تعالى ـ للاختيار. وأما إشفاقهم فليس إشفاق الخائف من شيء، ولكنه إشفاق من دخل عليه شيء ليس من طبيعته أو تكوينه فأشفق منه، وهو يدل على أن السماوات والأرض والجبال لها مشاعر أصابتها عند العرض بالإشفاق، واستمع إلى قوله تعالى عن موقف السماوات والأرض من فرعون وجنوده بعد غرقهم فى البحر: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان: ٢٩]. وهى آية تؤكد أن لها مشاعر تبكيها أو تمنعها من البكاء حسب الأحوال.

أما عن حمل الإنسان للأمانة :

فقد كان فى مشهد من السماوات والأرض والجبال حتى يعرفن فضل الإنسان على باقى الخلائق مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٠]. وهذا التكريم والتفضيل .. إذًا ليس انحيازًا من الله للإنسان ولكنه الله ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى: ٢، ٣]. فهيأ للإنسان القدرة على تحمل الأمانة دون غيره من المخلوقات.

أما وصف الإنسان بانه كان ظلومًا جهولاً :

فهو وصف لمن خان الأمانة ولم يحملها حق حملها، ولأن هذا سوف يكون

شأن الغالبية والأكثرية، فجاء الوصف منطبقًا على الأكثرية مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ .. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، ﴿ .. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، ﴿ .. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [هود: ١٧]، ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿ .. فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً ﴾ [الإسراء: ٨٩]، ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠٢]، ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦] .. وغير ذلك من الآيات، أما الأقلية فهم المؤمنون الشاكرون الموحدون والذين يعلمون .. فأدوا الأمانة وحملوها حق حملها.

لذلك جاءت الآية التي بعد آية الأمانة والتي تختتم بها السورة لتذكر لنا الصنفين وعاقبتهما عند الله تعالى يوم القيامة. فالأكثرية من المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات سوف يعذبهم الله، والأقلية من المؤمنين والمؤمنات سوف يتوب الله عليهم .

﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [الأحزاب: ٧٣].

ولكن لماذا توعد الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات بالعذاب، ولم يعد المؤمنين والمؤمنات بالنعيم؟ نقول ـ والله أعلم ـ لعلم الله السابق أن حمل الأمانة وأداءها كاملة مما لا يكاد يتحقق على وجهه كاملاً إلا في صفوة مختارة من أنبياء الله ورسله.

إذاً فالمطلوب من الناس في أعلى منازلهم، وأرفع درجاتهم أن يسددوا ويقاربوا، وأن يأتوا من الأمر ما استطاعوا كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام في بعض أحاديثه. فإذا وقع منهم تقصير ـ وهو واقع حتماً ـ فإن رحمة الله ـ تعالى ـ ومغفرته من وراء هذا التقصير إذا هم تابوا ورجعوا إلى الله واستغفروه ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾.

وكل من أخلص العبادة لله عز وجل ولم يشب عبادته شرك أو نفاق أو رياء، وكل من أخلص التوبة إلى الله .. فإن الله غفور رحيم.

.. اللهم اعف عنا واغفر لنا وارحمنا .. آمين.

obeikandl.com